

الصوفية

للدكتور عبد الوهاب عزام



سألني الأديب إبراهيم العجلان رأيي فيما يشور من الجدل حول الصوفية وعن فتوى الطرطوشي التي نشرت في الرسالة وفيها « مذهب الصوفية بطلاة وجهالة وضلال، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه السامري كما اتخذ لهم مجلاً جسداً له خوار قاموا برقصون حوله ويتواجدون » الخ

وهذا جواب للسائل الفاضل :

— ١ —

كان في المسلمين منذ شاعت هداية الإسلام عبادة زهاد لا يتميزون بلباس أو شارة، ولا بفارقون الجماعة في قول أو فعل؛ ثم امتاز منذ أواخر القرن الثاني جماعة من الزهاد باسم الصوفية وحدثت لهم سنن وآداب ميزتهم عن جمهور الأمة، ونشأت بينهم أقوال وأفعال لم تكن معروفة بين المسلمين. ثم نبغ لهم إمام بعد آخر كان لأقوالهم وأفعالهم آثار واضحة في اتجاه الطريقة وحدودها كان التصوف أول الأمر زهداً، ثم صار معرفة وحياً، ثم صار فناً وخطت سبل تربية السالكين فصار التصوف طريقة، ونشأت فيه أساليب من النظر واختلط به آراء من الفلسفة فصار له فلسفة أو ما يشبه الفلسفة

وإذا أردت أن تتبع تطور التصوف في تاريخ الرجال فانظر في سير أمثال الحسن البصري وسفيان الثوري ثم أمثال شفيق البلخي وإبراهيم بن آدم والري السقطي ومعروف الكرخي، ثم أمثال الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي ثم الحلاج والسروردي المقتول وابن العربي

وليس التصوف مذهباً واضح الحدود بين العالم يجمع كل من دخل فيه على آراء متفقة، وأعمال متشابهة، بل فيه آراء مختلفة وأقوال متباينة، وسير شتى. فيه تصوف الخاصة والعامة وطريقة المتصدين والغلاة وأقوال الصالحين والساكري

— ٢ —

وقد ظهر في التصوف منذ امتازت معالته ووضعت رسومه

أهل الصحو وأهل السكر؛ الأولون يضبطون أنفسهم ويؤلفون بين أقوالهم وأعمالهم وبين الشريعة، والآخرون يرمون حين يفلهم الوجد بالكلام المتعلق بهم أو القول لا يوافق الحدود التي حثها الشريعة للعقائد والأعمال

وأرى أن أوضح مثل لهذين الضريين : الجنيد البغدادي وأبو يزيد البسطامي. كان الجنيد وقوراً رزيناً لا يتلبه الوجد على نفسه؛ وأبو يزيد - كالشبلي البغدادي - يرى بالكلمة بعد الكلمة ينكرها الناس ويضجون منها أو يججون لها ويتحجرون، فيجهد الجنيد في تفسيرها وتأويلها. وفي كتاب اللع لأبي نصر السراج أمثلة من هذا

ومن التزموا المحجة الواضحة كالجنيد جماعة ألقوا في التصوف وابتنوا حدوده وملاءمته للشرع، مثل أبي القاسم القشيري صاحب الرسالة، والسراج صاحب اللع، وأبي طالب المكي صاحب قوت القلوب، والغزالي

— ٣ —

والخلاف بين العلماء أهل الظاهر، والصوفية أهل الباطن، قديم مديد نشأ منذ صار التصوف طريقة واستمر إلى يومنا وحسبك أن قرأ ما كتب ابن الجزري في كتابه (تليس إبليس) : « العلماء يرمون الصوفية بالخروج على الدين، والصوفية يرمون العلماء بالوقوف على الصور والأشكال، ويرون أن علمهم لا يفتى في سبيل الله فتيلاً ». وكم سخر الصوفية من أهل الظاهر ووصفهم بالملظة والجفاء والقصور عن إدراك البواطن وتدوق الواجد. وليس يتسع المقام لبيان هذا

وقد وجد العلماء في سير بعض الصوفية ما يقوى حجتهم ويصدق دعواهم. وقد تسمى باسم الصوفية أفراد وطوائف جعلوا التصوف وسيلة إلى مآربهم وشهواتهم؛ كما قال للمري :

لو كنتم أهل صفوة قال ناسبكم صوفية فأتى باللفظ ما قلباً جنس لا إبليس في بدليس آونة وتارة يحملون العيش في حلبا والشكوى من الصوفية قديمة نجدتها في رسالة القشيري التوفى سنة ٤٦٥. ويقول في مقدمة الرسالة : « ثم اعلموا حكم الله أن المحققين من هذه الطائفة اقترض أكثرهم ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أترهم، كما قيل :

أما الحيام فإنها نكياهم وأرى نساء الحى غير نساها وحصلت الفترة في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة

بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اعتداء ، وقلّ الشبان الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء . وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وأرتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام . وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلّة المبالاة بتماطى المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحدروا عن ريق الأغلل، وتحققوا بمخاتق الوصال، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محسوس، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يؤدونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحذية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت

عندهم أحكام البشرية ، ويقوا بعد غنائهم عنهم بأوار الصمدية . الخ
وقد حدثت بعد التشيرى أحداث . ونجحت مذاهب ضج الناس منها ، وضيع كثير من حقائق الطريقة وتحفظت صورها ، وخف على العامة وأشباههم أن يراوا بأقوالهم الغربية وأفعالهم العجيبة ، إذ قصروا عن إدراك الدقائق، وهجروا عن معرفة الحقائق وفي الصوفية اليوم أهل الورع الصادقون الدائبون في رياضة النفس وتهذيبها وكبحها ، وهداية الناس وتهذيبهم في غير عجب ورياء ولا جلبة وضواء . ومنهم الجاهلون الذين لا يعرفون من التصوف إلا الأصوات والحركات ، والملابس والشارات . وليس لهذا الأمر إلا تحكيم الشرع ، والاتفاق على فروضه وسننه وآدابه ، وكلهم مسلمون راضون بحكم الشريعة جديرون أن يجتمعوا عليها ، ويتآخروا فيها
وسأين في المقال التالي التصوف الذي يلائم الإسلام والذي ندعو إليه في هذا العصر إن شاء الله عبد الوهاب عزام

سعد زغلول من قضيتيه

الف

عبد حسن الزيات

النجاشي

عمل أدبي قانوني يماج حياة سعد القضائية ، ويحاول تصوير شخصيته واتجاهاته على ضوء أحكامه التي تجلو هذه الشخصية وتؤمى إلى أمور ستطالنا بعد في حياته السياسية ، كما نرى من أحكامه المتعلقة بالاستقلال القضائي لمصر عن العولة النمائية ، والمتعلقة باختصاص المحاكم المختلطة ، والمتعلقة بتحقيقات وأعمال رجال الإدارة ، والمتعلقة بحق الصحافة في قد الموظفين ، والمتعلقة بالنش والظلم في مختلف صورته ، كظلم نظار الوقف للمستحقين ، وظلم الأوصياء والقوام للقصر والمحجورين . وإلى هنا كله إشارة إلى مواقف قضائية رائدة من مواقفه ، وإلى سببه المشرع بتقرير مبادئ لها أهميتها الكبرى . وانتظم فصل القاضى الجنائى عرضاً تفصيلياً لجملة من جنائيات القتل انمازت بظروف تثير الفكر أو تثير الماطفة . واشتمل الكتاب فوق هذا على أحكام لتبر سعد من قضاة قدامى ومحدثين مقابلة بأراء الفقه في بعض الأحيان ؛ ومن هذه الأحكام وتلك - ما كان لسعد وما كان لغيره - عشرات لم يسبق نشرها قط رغم أهميتها .

يقع الكتاب في ٤١٦ صفحة من القطع الكبير ، وقد جعل ثمنه ثلاثين قرشاً صاغاً وهو يطلب من المكتبات ، ومن مكتب مؤلفه بشارع إبراهيم بلشا رقم ١٠ - بسايدن